تعيش أمتنا العربية والإسلامية حالة من الهزيمة والضعف والتبعية والهزال الحضاري، سبق أن مرت بها أكثر من مرة على امتداد تاريخها العامر، وفي فترات الضعف والهزيمة كانت الأمة تمر بنفس القواسم المشتركة، فحالة التجزئة تعم الأمة وكل حاكم يتمسك بإمارته الصغيرة أمام طوفان الاكتساح الصليبي، ويقدم فروض الطاعة والولاء لأعداء الأمة المنتصرين، علهم يتركونه على إمارته ولا يمسوه بسوء، وخلال ذلك كله تختفي المصلحة العامة للأمة وفريضة الدفاع عن العقيدة وحتمية الوحدة الإسلامية وعلو الهمة وشحذ النفوس وترغيب المسلمين في الشهادة دفاعًا عن الدين والهوية قبل أن يكون الدفاع عن النفوس والأوطان.

ومن هذه القواسم المشتركة أيضًا الهزيمة النفسية التي تجتاح قطاعًا غير قليل من النخبة الانتهازية التي تمسك بمفاصل القرار في الأمة، حيث يظهر الكثيرون منهم الذين يتماهون مع أعداء الأمة سياسيًا وثقافيًا ويأخذون على عاتقهم التشكيك في ثقافة الأمة وعقيدتها وثوابتها وتاريخها.

وفي أيامنا هذه التي تنتمي إلى عصور الضعف والهزيمة، انقض الروس على بلاد الشام المسلمة، التي أوصى بها رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم)، والتي هي من أعز أجزاء أمتنا العربية الإسلامية، وأصبح لهؤلاء الأعداء التاريخيين قاعدة بحرية في طرطوس وقاعدة جوية في حميميم، منهما ينطلقان ليحولا بلاد الشام إلى أنقاض، ويلقون ببراميل الموت فوق مسلمي الشام، لا لسبب فعله هؤلاء الضعفاء إلا إن حاكمًا ديكتاتورًا مستبدًا رفض أن يقوم شعبه بثوره ضده وضد ظلمه، فتمسك بالكرسي الفاني واستدعى أصدقاءه من أعداء الأمة، الذين لهم حسابات أخرى في لعبة مصالحهم مع أشقائهم الأوروبيين والأمريكيين.

الموقف إذًا واضح شديد الوضوح، فموقف الدكتاتور السوري معلوم بيقين أنه موقف خاطئ، وهل بعد أن يثور شعبه عليه لمدة خمس سنوات كاملة أدنى شك في أنه يقف الموقف الخطأ؟ وهل تجد أية نفس سوية صعوبة في أن تقرر خطأ هذا الديكتاتور الذي قتل من شعبه قرابة النصف مليون وأحال المدن والقرى السورية إلى أنقاض؟ وهل تجد أية نفس سوية – مهما كانت قليلة العلم والثقافة – صعوبة في أن تتأكد من أن ما فعله الروس إنما هو غزو وعدوان؟

لكن للأسف الشديد نجد أن قطاعًا من نخبتنا السياسية والثقافية في عالمنا العربي ممن يسمون "القوميون" يحجون إلى قصر هذا الحاكم الديكتاتور ويشدون على يديه ويدعمونه، ويرددون أنه يقف موقفًا بطوليًا في مواجهة الإرهابيين الإسلاميين!!

كما إن هؤلاء القوميين يؤيدون الغزو الروسي ولكنهم يسمونه بغير اسمه، فهو عندهم مجرد عمليات عسكرية لضرب أوكار الإرهابيين، كما إنه مساعدة أخلاقية ونبيلة من الأصدقاء الروس لحامي عرش القومية العربية وقائد المقاومة والممانعة ضد المشروع الصهيوني .. بشار الأسد!! كما إن هؤلاء القوميين العرب يعتبرون أن روسيا تاريخيًا تقف مع الحق العربي وتؤيد القضية الفلسطينية!!

بالتأكيد، الذي جعل القوميين العرب يقفون هذا الموقف المخزي والخائب والمهزوم، كراهيتهم للإسلاميين، واعتبارهم أن المعارضة السورية المسلحة يغلب عليها المكون الإسلامي، وبالتالي فإذا انتصرت هذه الثورة فسوف يكون الإسلاميون هم الرقم الأول والصعب في المعادلة السورية. ونسي هؤلاء القوميون أن الثورة السورية في أول شهورها كانت تعبر عن المجتمع السوري كله ولم يكن المكون الإسلامي يتعدى 15% من مكوناتها، وأن الجيش السوري الحر لم يكن فيه من المكونات الإسلامية إلا قليلاً، وإنما ظهرت المكونات الإسلامية بعد أن تعسكرت الثورة السورية بفعل جبروت وإرهاب نظام بشار ورده المسلح على الثورة السلمية، كما إن الثورة استمرت قرابة العامين ولم يكن تنظيم الدولة الإسلامية قد وصل إلى سوريا.

وهكذا فإنه من توفيق الله في الخذلان، وجدنا القوميين العرب يقفون في خندق أعداء الأمة، فهم مع الحكام الديكتاتوريين دائمًا، وهم مع الروس الغزاة، كما إن موقفهم أصبح متماهيًا مع الموقف الإيراني، خاصة بعد أن تحولت إيران إلى مشعل للحرائق في العالم العربي، وبعد أن وقفت ضد الثورات العربية، وبعد أن أعلن قادتها أنها أصبحت تسيطر على مجريات الأمور في أربع عواصم عربية.

وهكذا كشفت الثورات العربية هؤلاء القوميين المزيفين، فبعد أن وقف القوميون ضد هذه الثورات وعاونوا من انقلب عليها وبرروا كل جرائم وأد هذه الثورات، انكشف زيف تراثهم ومقولاتهم السابقة التي طالما نادت بالثورات الشعبية ضد الطغاة، وعندما ثارت الشعوب ضد الطواغيت وقفوا ضد الشعوب الثائرة التي فضحت هؤلاء الكذابين المنقلبين على شعوبهم، بل على أنفسهم وتاريخهم وأدبياتهم، واكتشف العالم العربي من شرقه إلى غربه، أن هذه الطغمة المسماة بـ"القومية" لا تقل خطورة على العرب عن الصهيونية والصفوية، وأنهم أكبر نخبة تنعم بتسهيلات ومناصب الأنظمة السياسية، التي وثقت فيهم وأوكلت إليهم مراكز صناعة القرار الثقافي والإعلامي في الكثير من بلداننا العربية.

وإلى القوميين العرب المخدوعين، نذكرهم بأن روسيا جزء من الرباعية الدولية ذات الشروط الأربعة الشهيرة التي يقف في مقدمتها شرط نبذ المقاومة، أو ما يسمونه العنف. كما نذكر هؤلاء المخدوعين بأن روسيا حينما بدأت ضرب أهداف المعارضة السورية على امتداد سبعة أشهر، أقامت تحالفًا معلومًا للكافة مع الكيان الصهيوني، وصل إلى حد أنه حتى لو حلقت الطائرات الروسية فوق تل أبيب، فإن الجيش الصهيوني لا يقوم بإسقاطها.

ثم نقول للقوميين العرب إن السبب الرئيس في الانسحاب الروسي الجزئي من سوريا كان إدراك روسيا بأنها لن تستطيع أن تفعل في المعارضة السورية أكثر مما فعلت، وأنها يستحيل أن تغير موقف هذه المعارضة من النظام، وغاية ما استطاعت فعله هي أنها أخرت سقوط نظام بشار الذي كان على وشك السقوط، مما حسّن من شروطه في التفاوض.

صحيح أن الانسحاب الروسي الجزئي من سوريا كانت له عدة أسباب وليس سببًا واحدًا، ومن هذه الأسباب نجاح التفاهمات الروسية ـ الأمريكية حول ضرورة الانتقال إلى الحل السياسي، وتأديب موسكو لبشار الذي عاندها فرفض فكرة الفيدرالية التي دعت إليها ولجأ إلى انتخابات تشريعية في منتصف الشهر المقبل، ثم الأزمة الاقتصادية التي واجهتها روسيا بعد انخفاض أسعار النفط الذي أدى إلى خفض الموازنة العسكرية خصوصًا أن تكلفة القوات الموجودة في سوريا قدرت بثلاثة ملايين دولار يوميًا، وكذلك قلق الرئيس الروسي من قرار الرئيس الأمريكي نشر قوات قتالية دائمة على طول دول البلطيق وأوروبا الشرقية المتاخمة للحدود الروسية. كل هذه الأسباب صحيحة ومعقولة، إلا إن صلابة المعارضة السورية ويأس روسيا من تطويع هذه المعارضة وخوفها من أن تتحول سوريا إلى مستنقع أفغاني للروس، خاصة مع التحذير الأمريكي بأنه إذا فشلت محاولات الحل السلمي للأزمة السورية، بفعل تصلب الموقفين الروسي والسوري، فإن الولايات المتحدة قد تلجأ إلى الخطة (ب) التي اتضح فيما بعد أنها تزويد المعارضة السورية بأسلحة نوعية من شأنها قلب المعادلة... **كان هذا هو السبب الرئيس الذي جعل الروس يراجعون حساباتهم ويخطون خطوة إلى الوراء.**

كاتب المقالة : د. ليلى بيومي
تاريخ النشر : 24/03/2016
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com